

العدل مفتاح السعادة

للأستاذ عبد المنصف محمود عبد الفتاح

(١)

العدل هو القيام بالحقوق على الوجه الأكمل . ووضع الأمور في نصابها من غير إفراط ولا تفريط ، وهو رأس الفضائل ، وتاج المكارم وأساس الخيرات ، وعنوان الحكومات . . به تنتظم أمور الدنيا والدين . وعليه تتوقف سعادة المجتمع من انصف به : كان محبوبا عند الله ، جديرا بحسن رعايته ، وعظيم ثوابه ، قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . فإن قامت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المقسطين (أى العادلين) عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل

وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا ، وإنما كانوا على منابر ؛ لأنهم رفعوا من شأن المظلومين ، ونصفوهم من الظالمين . . وإنما كانت المنابر من نور ؛ لأنهم نوروا للناس طريق الخير ، وقادوهم إلى مافيه سعادتهم بسبب عدلهم . وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأدناهم منه مجلسا : إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى ، وأبعدهم منه مجلسا : إمام جائر » وكتب عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى : أما بعد فإن أسعد الرعاة عند الله من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته ، وإياك أن تزيع فيزيغ عملك ؛ فيكون مثلك عند الله مثل البهيمة ، نظرت إلى خضرة من الأرض ،

فرعت فيها تبتغي بذلك السمن
 (الرتع قال المصباح: رتعت الماشية
 رتعا من باب نفع ورتوعا: رعت
 كيف شامت)؛ وإنما حثفها في
 سمنها والسلام .
 ومحبوبا عند الناس : مالكا بعدله
 أفقدهم ، مستوجبا الثناء والمعونة
 منهم ، آمنا على نفسه وماله وعرضه
 فيجيا حياة طيبة ، ويعيش عيشة
 راضية . . روى أنه لما وفد رسول
 ملك الروم على أمير المؤمنين عمر
 ابن الخطاب رضى الله عنه بحث
 عنه فلم يجده ، حتى ألفاه نائما تحت
 ظل شجرة ، وراع موفد دولة
 الأباطرة تلك البساطة التي يعيش في
 نعمتها عاهل المسلمين ، وأمير
 المؤمنين ، وهاله الفارق الكبير
 بين هرقل الذي يحب في الخبز
 والديباج وينعم بالسرر المقروشة ،
 والأرائك المنضودة ، يحيط به
 الأقبال والقواد ويمحسه الفرسان
 والأجناد . . وبين هذا الرجل :
 المرقع الثياب ، النائم على التراب
 في ظل الشجرة ، لا يحرسه الا
 اطمئنانه على رضا الناس عنه .
 فقال كلمته المشهورة : يا عمر

عدلت فأمنت فمنت . . قال شاعر
 الشعب المرحوم حافظ ابراهيم :
 أمنت لما أقمت العدل بينهم
 فمنت يوما قرير العين هانيها
 وقديما قيل : عدل السلطان ،
 أنفع من خصب الزمان ، وإذا
 رغب السلطان عن العدل ، رغب
 الرعية عن طاعته ، وإذا عدل في
 حكمه ، وجب عليها محبته .
 وهو مطلوب : من الرجل في أهله
 ومن القاضي في محكمته ، كما هو
 مطلوب : من الوزير في وزارته ،
 والحاكم الأعظم في رعيته .
 وقد جعل الاسلام كل من ينط
 به عمل من الأعمال ، أيا كان نوعه
 مسئولاً عن العدل فيه ، قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : كلكم راع
 وكلكم مسئول عن رعيته : الامام راع
 ومسئول عن رعيته ، والرجل راع
 في أهله ومسئول عن رعيته ،
 والمرأة راعية في بيت زوجها
 ومسئولة عن رعيتهما ، والخادم راع
 في مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل
 راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته ،
 وكلكم راع ومسئول عن رعيته . .

فهؤلاء جميعا مسئولون بين
يدى الله تعالى عن العدل فى أعمالهم
فمن حفظ ما وكل إليه من الأعمال
وقام به على أكمل وجه ، فله جزاء
الحسنى ، ومن ضيعه وفرط فيه
فله سوء العقبي . روى ابن حبان عن
أنس بن مالك رضى الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« إن الله تعالى سائل كل راع عما
استرعاه . حفظ أم ضيع » زاد
فى رواية : « حتى يسأل الرجل عن
أهل بيته » .

تفقد أحوال الرعية :

الحاكم العادل : هو الذى يظل
دائب السهر على مصالح رعيته ،
يسوس أمورهم ، ويرعى شئونهم ،
يفرح لفرحهم ويتألم لألمهم ، يحس
بإحساسهم ، ويشعر بشعورهم ،
يفيث الملموفين ، ويفرج كربة
المكروبين ، ويستجيب لانات
المتوجعين ، ويكفكف بيده
الرحيمة دموع المنكوبين ، يعمل
على راحتهم ، ويسعى فى سبيل
إسعادهم . . روى عن نافع : أن
رفقة من التجار قدموا المدينة ،

فذهب عمر بن الخطاب (وهو
خليفة) يحرسهم ومعه عبد الرحمن
ابن عوف فسمع بكاء صبي ، فتوجه
عمر نحو أمه ، وقال لها : اتقى الله
وأحسنى إلى صبيك !! ثم سمع بكاء
مرة ومرة . . فلما كان من آخر الليل
سمع بكاء . فأتى أمه فقال : ويحك
إني لأراك أم سوء !! ما لى أرى
ابنك لا يقر منذ أول الليل ؟ قالت :
قد أضجره منذ أربع ليال أمر الفطام
قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض
من بيت المال ، إلا للطفل القطيم .
قال لها : لاتعجلية . فصلى الصبح
وما يستئين الناس قراءته من غلبة
البكاء . فلما سلم قال : يا بؤسا لعمر
كم قتل من أولاد المسلمين !! لاتعجلوا
صبيانكم عن الفطام ، فإننا نفرض
لكل مولود .

الراعى ينبغى أن يكون حازما :
عن على كرم الله وجهه أنه قال :
يجب على الوالى أن يتعهد أمورهم ،
ويتفقد أعوانه ، حتى لا يخفى عليه
إحسان محسن ، ولا إساءة مسيء ،
ثم لا يترك أحدا منهما بغير جزاء ،
فإن ترك ذلك تهاون المحسن ، واجترأ

المسيء ، وفسد الامر ، وضاع العمل
وقال إبراهيم بن العباس إذا كان
للمحسن من الثواب ما يفتعه ،
وللمسيء من العقاب ما يقمعه ، إزداد
المحسن في الإحسان رغبة ، وانقاد
المسيء للحق رهبة . . فليكن الراعي
على بينة من أمر رعيته ، مجازيا كلا
عن عمله ، ليصلح حالها ويستقيم
أمرها . قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما

فليقس أحيانا على من رحم
روى أن جبلة بن الأيهم آخر
ملوك بني غسان : لما أسلم وقدم مكة
حاجا ، مضى يطوف بالبيت . فداس
رجل من بني فزارة ذيل ردائه ،
فانحلت أزراره ، فلطمه جبلة على
وجهه ، فاستعدى الفزاري عليه عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه ، فدعا به
وخيره بين أمرين : إما أن يرضى
الفزاري ، وإما أن يقيد منه . قال
جبلة يأمر المؤمنين أتقيده مني
(يعني أتركه يقتص مني) وأنا ملك
وهو سوقة ؟ قال عمر : ولكن
الإسلام قدسوى بينكما .

وقد أنقذ الله عز وجل في كتابه

الكريم ، على القائد الحكيم والبطال
العظيم : الذي آتاه من كل شيء سببا
فأتبع سببا ، لأنه وجه قواه ،
لتعذيب أهل الشر والضلال ، وإثابة
أهل الخير والإيمان : . قلنا ياذا
القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ
فيهم حسنا ، فوضع لقوته دستورا
صالحا ، يطبقه عمليا على أفراد رعيته
والداخلين تحت إمرته ، والخاضعين
لسلطته . . من حيث التعذيب
أو الإثابة : قال أمان من ظلم (أى نفسه
ولم يقبل دعوتى ، وأصر على ما كان
عليه من الظلم العظيم الذى هو الشرك
بالله) فسوف نعذبه (أى بالقتل
عن فتادة رضى الله عنه أنه قال :
كان يطبخ من كفر بالله في القدور
ومن آمن أعطاه وكساه) ثم يرد إلى
ربه (أى في الآخرة) فيعذبه
عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل
صالحا فله جزاء الحسنى وستقول
له من أمرنا يسرا .

وروى أن بعض الملوك بلغه
سياسة ملك آخر ، وما اتصف به
من حكمة وحزم ، وسداد فى الرأى
وبصر بالعواقب ، فكتب إليه :

قد بلغت من حسن السياسة مبلغا لم يبلغه ملك في زمانك فأفقد عن الذي بلغت به ذلك؟ فكتب إليه : لم أهزل في أمر ولا نهى ، ولا وعد ولا وعيد واستكفيت أهل الكفاية ، وأثبتت على الغناء (الغناء بفتح الغين : النفع ، وقيل : الاكتفاء) لأعلى الهوى ، وأودعت القلوب همة لم يشبهها مقت وودا لم يشبهه كذب ، وعممت القوت ومنعت الفضول .

الحكومة الصالحة :

سئل الفيلسوف الصيني القديم كنفوشيوس : ماهى الحكومة الصالحة ؟ قال : هى التى تحظى بثقة الشعب ، فعاد وامرة ثانية يسألون كنفوشيوس : ولكن كيف تحظى الحكومة بثقة الشعب؟ قال : يصلح الحاكم نفسه ، وإذا فعل فهو سوف يصلح من حوله . ثم بعد ذلك يسرى الإصلاح إلى الجميع . ثم بعد ذلك يثق الشعب فى الحكومة .

وبينما هو سائر فى طريقه . ذات يوم فى حشد كبير من تلاميذه : رأى امرأة تنوح على قبر فسألها عن حالها فقالت . إن هذا القبر يضم

رفات زوجى وأنى وإبنى !! فتعجب الحكيم وسألها كيف ماتوا جميعا ؟ فقالت : عدا على كل منهم نمر من نمر الغاب !! فازداد عجب الحكيم وسألها : ما مقامها بأرض مشنومة تعدو فيها النمرور على ساكنيها ؟ فقالت ، إن أقيم بها ، لأن حاكمها لا يضطهد الناس .. فالتفت إلى تلاميذه وقال رأيتم يا أبنائى اذكروا دائما : أن الحكومة الظالمة أشد فتكا من النمرور وأقسى . وقيل : لا يكون العمران حيث لا يعدل السلطان . وقد قيل فى قول الله تعالى : . ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، أنه وعيد للظالم ، وتعزية للمظلوم . ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فقال : اذكر يا أمير المؤمنين يوم الأذان قال : فما يوم الأذان ؟ قال : اليوم الذى قال الله فيه : . فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ، فبكى سليمان وأزال ظلامته .

« يتبع »

عبد المنصف محمود عبد الفتاح
واعظ مركز شبين القناطر